

التأويل في شرح الكافية البديعية

لصفي الدين الحلبي

أ.د. علي عباس الأعرجي

جامعة الكوفة/كلية التربية للبنات

م.د. فاطمة عبد زيد شوين الخزاعي

*Interpretation in the Explanation of Al-Kafia
Al-Badi'iyyah by Safi Al-Din Al-Hilli*

Prof. Dr. Ali Abbas Al-Araji

University of Kufa/College of Education for Girls

Lect. Dr. Fatima Abd Zaid Shurwin Al-Khuzai

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً لا ينقطع أبداً ولا تحصي له الخلائق عدداً، وأفضل الصلاة والسلام على حبيبه المختار، وآل بيته الكرام الأطهار، وصحبه المنتجبين الأبرار.

وبعد...

للتأويل أهمية بالغة في تحليل النصوص الأدبية وشرح نصوصها، واكتشاف ما خلف الألفاظ من معاني ودلالات يكتشفها المتلقي المتدوّق للنصوص، فضلاً عن أنّ التأويل يمكّن الأديب من إخفاء معاني لا يمكن إظهارها بشكلٍ سطحيّ، وهذا ما وظّفه الشاعر صفيّ الدين الحليّ بكافيته؛ لأنّه عاش في عصر حتمّ عليه هذا الأسلوب في أشعاره.

وعلى وفق ما تقدّم قسّمنا الدراسة على مبحثين يسبقها مهاد بثلاث فقرات؛ تناولنا فيها التأويل لغةً واصطلاحاً، ونبذة مختصرة من حياة صفيّ الدين الحليّ، وعلاقة التأويل بعلم البديع، ثمّ تناولنا في المبحث الأوّل المحسّنات البديعية اللفظية، وما اشتملت عليه من فروع، أمّا المبحث الثاني فقد خصّصناه لدراسة المحسّنات البديعية المعنوية، لحقتها خاتمة وثبت للمصادر والمراجع.

والحمد لله بدايةً لا نهاية لها.

Abstract

Praise be to Allah, Lord of the worlds, a great thank you that never ceases, and the creatures do not count to Him in number And the best of prayers and peace be upon his chosen beloved, and his honorable and pure family, and his chosen and righteous companions.

Interpretation is of great importance in analyzing literary texts and explaining their texts, and discovering the meanings and connotations behind the words that are discovered by the connoisseur of texts, in addition to the fact that interpretation enables the writer to hide meanings that cannot be revealed superficially. Because he lived in an era inevitable by this method in his poems.

And according to what was presented, we divided the study into two sections preceded by a three-paragraph section; In it we dealt with interpretation linguistically and idiomatically, and a brief summary of the life of Safi al-Din al-Hilli, and the relationship of interpretation to the science of



Badi', then we dealt in the first section with al-Badi'iyyah verbal improvements and the branches they included, while the second topic we devoted to the study of al-Badi'iyyah moral improvements, followed by a conclusion and proven sources and references.



المقدمة

الحمد لله البديع الرفيع، الذي أحسن ابتداء خلقنا بصنعته، وأولانا جميل الصنيع، فاستهلت الأصوات ببراعة توحيده، وهو البصير السميع أذب نبينا محمداً فأحسن تأديبه، حتى أروشدنا، جزاه الله عنا خيراً إلى سلوك الأدب، وأوضح لنا بديعه وغريبه.

وبعد...

فهذه البديعية التي نسجها الشاعر صفي الدين الحلبي في العصور المظلمة على منوال طراز البردة في مدح الرسول ﷺ، وضمّنها كل أنواع البديع التي كانت شائعة في عصره، لم تكن معانيها مضمرة أو تأويلية، بل كانت أغلب معانيها مباشرة؛ لأن علم التأويل يعتمد على الجهد الفكري، وكدّ الذهن، والربط بين مختلف العوامل الثقافية والتاريخية والنصية، فهو يمنح فرصة للخروج من مأزق المنهج فيما يخص المقاربة الداخلية للنص، والخروج بالجديد، وإن كان بالمغامرة، وهذا لم يكن موجوداً في عصر الشاعر (العصور المظلمة)؛ بسبب الظروف التي مرّ بها العصر؛ لهذا قسّمنا البحث على محاور محدّدة تحمل دلالات تأويلية بين طياتها، نحاول أن نستشفّ منها ما يُعني البحث.

التمهيد

أولاً: التأويل في اللغة والاصطلاح

التأويل لغة:

هو تفعيل من آل يؤول أي رجع وعاد، والتأول والتأويل «تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصحُّ إلا ببيان غير لفظه، التأويل: المرجع»^(١) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ۗ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

وقال الجوهري: «التأويل: تفسير ما يؤول إليه الشيء، وقد أولته وتأولته وتأولاً بمعنى»^(٣)، وجاء في القاموس المحيط: «أول الكلام تأويلاً، وتأوله دبّره وقدره (وفسّره)»^(٤).

أمّا في الاصطلاح:

فعرّفه الغزالي قائلاً: «احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظنّ من المعنى

(١) لسان العرب، ابن منظور: ٣٣ / ١.

(٢) سورة ال عمران: ٧.

(٣) الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري: ٤ / ١٦٢٧.

(٤) القاموس المحيط، الفيروز آبادي: ٩٦٣.

الذي يدلُّ عليه الظاهر»^(١)، في حين يقول الطبرسي: «التأويل ردُّ أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر»^(٢)، وعرفه الأمدّي بقوله: «هو حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر منه، مع احتمال له»^(٣).

ولا يكون التأويل صحيحاً إلا إذا اقترن بدليل^(٤)، هذا عند علماء الأصول من المتكلمين، إلا أن التأويل في المسائل القطعية يقول الرازي هو: «صرف اللفظ عن ظاهره إلى معناه المرجوح لا يجوز إلا عند قيام الدليل القاطع على أن ظاهره محال ممتنع، فإذا حصل هذا المعنى، فعند ذلك يجب على المكلف أن يقطع بأن مراد الله من هذا اللفظ ليس ما أشعر به ظاهره، ثمَّ عند هذا المقام من جَوَز التأويل عدل إليه»^(٥).

وعرفه ابن حزم الظاهريّ بأنه: «نقل اللفظ عمّا اقتضاه ظاهره، وعمّا وُضِع له في اللغة إلى معنى آخر، فإن كان نقله قد صحَّ ببرهان، وكان ناقله واجب الطاعة، فهو حقٌّ، وإن كان نقله بخلاف ذلك اطرح، ولا يلتفت إليه وحكم لذلك النقل بأنه باطل»^(٦).

ويذكر ابن رشد: «أنه إذا خالف ظاهر الشرع البرهان طلب تأويل ظاهر الشرع، ومعنى التأويل عنده هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخلَّ في ذلك بعادة لسان العرب في التجوُّز من تسمية الشيء بشيئه أو بسببه

(١) المستصفي، أبو حامد الطوسي، ١٩٦

(٢) مجمع البيان، الطبرسي: ١٣/١.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام، الأمدّي: ٥٣/٣.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٥٣/٣.

(٥) أساس التقد عند العرب، أحمد أحمد بدوي: ١٣٧.

(٦) الإحكام في أصول الأحكام، أبو محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري:

أو لاقفه، أو مقارنه أو غير ذلك»^(١)، وذكر أنّه لا بُدَّ من التوافق بين المعقول والمنقول، إذ قال: «ونحن نقطع قطعاً كلّما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع، أنّ ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربيّ، وهذه القضية لا «يشكُّ فيها مسلم، ولا يرتاب بها مؤمن»^(٢).

ويقول الرازي: «هذه الدلائل الثقليّة إمّا أن يُقال إنّها غير صحيحة، أو يُقال إنّها صحيحة، إلّا أن المراد منها غير ظواهرها، ثمّ إن جَوَزنا التأويل واشتغلنا على سبيل التبرُّع بذكر تلك التأويلات على التفصيل، وإن لم يجز»^(٣).

ويقول أيضاً: «جميع فرق الإسلام مقرون التأويل، فقد فوضنا العلم بها إلى الله بأنّه لا بُدَّ من التأويل في بعض ظواهر القرآن الإخبار»^(٤)، ويقول: «فلو أخذنا بالظاهر يلزمنا إثبات شخص له وجه واحد، وعلى ذلك الوجه أعين كثيرة، وله جنب واحد، وعليه أيدي كثيرة، وله ساق واحدة، ولا نرى في الدنيا أفبح صورة من هذه الصورة المتخيّلة، ولا اعتقد أنّ عاقلاً يرضى أن يصف ربّه بهذه الصفة»^(٥).

ويقول أيضاً: «ثبت بكلّ ما ذكرنا أنّ المصير إلى التأويل أمر لا بدّ منه لكلّ عاقل، وعند هذا قال المتكلّمون لما ثبت بالدليل أنّه منزّه عن الجهة والجسميّة وجب علينا أن نضع هذه الألفاظ الواردة في القرآن والأخبار محملاً صحيحاً ثلثاً يصير ذلك سبباً للطعن فيها»^(٦).

(١) ينظر: فصل المقال، ابن رشد الحفيد: ٣٢.

(٢) فصل المقال، ابن رشد الحفيد: ٣٣.

(٣) أسس النقد الأدبيّ عند العرب، أحمد أحمد بدوي: ٢١١.

(٤) المصدر نفسه: ٩٨.

(٥) المصدر نفسه: ٩٩.

(٦) المصدر نفسه: ١٠٣.

ثانياً: شرح الكافية البديعية لصفي الدين الحلبي

صفي الدين الحلبي (٦٧٧-٧٥٢هـ/١٢٧٧-١٣٣٩م) هو أبو المحاسن عبد العزيز ابن السرايا بن نصر الطائي السنبي، ولد في الحلة من العراق، وإليها نُسب، ومات في بغداد، أولع بنظم الشعر منذ شبَّ عن طوقه، وأخذ على نفسه ألا يمدح كريماً وألا يهجو لئياً، فكأنه على حدِّ قوله: لم ينظم شعراً إلا فيما أوجب له ذكراً^(١).

كان في شعره كثير التصنع والتكلف لأنواع البديع والألغاز والإبداع، فتلك ميزة عصره، وقد نظم قصيدة من بحر البسيط، عدد أبياتها مئة وخمس وأربعون بيتاً سماها: (الكافية البديعية في المدائح النبوية).

التي اشتهر بها، و«ألف كتاباً يشرح هذه القصيدة التي ضمَّن كل بيت شعري منها فناً من فنون البديع، إذ احتوت القصيدة على مئة وخمسة وأربعين فناً من فنون البديع بعدد أبياتها، إذ يقول في كتابه: «نظمت مئة وخمسة وأربعين بيتاً من بحر البسيط، تشتمل على مئة وخمسين نوعاً من محاسنه»^(٢)، جمع فيها أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية، وفتح بها طريق نظم البديعات لمن جاء بعده.

ثالثاً: التأويل وعلم البديع

تُطلق لفظة البديع في اللغة على معانٍ متقاربة، هي: الحدث والعجيب والمخترع والجديد الذي ينشأ على غير مثال، جاء في المعجمات العربية^(٣) بدع الشيء ببدعه بدعاً، وأبدعه، أنشأه، البديع والبدع: الشيء الذي يكون أولاً، والبديع المحدث العجيب،

(١) ينظر: ديوان صفي الدين الحلبي: ٥-١٩.

(٢) ينظر: شرح الكافية البديعية، صفي الدين الحلبي: ٥.

(٣) البلاغة والتطبيق، أحمد مطلوب: ٤٠٨.

والبديع، المبدع وأبدعت الشيء اخترعته لا على مثال. وهذا الشيء يرتبط مع مفهوم الخيال الذي يوجد مع الإرادة الوجدانية، أنه يحلّل وينشر و يجزأ لكي يخلق من جديد^(١)، وتتجلى هذه العبقرية في صهر المتناقضات وإعادة تجميعها على أساس إيجاد الرابطة التي تؤلف بينهم في نظام منسجم.

إذن يلتقي البديع مع الخيال في قدرته على إثارة تعاطف المتلقي أولاً، والقدرة على إبراز الجدة عن طريق ألوان الخيال ثانياً.

أمّا التأويل فهو الكشف عن الدلالة الخفية والعودة إلى أصل الشيء، بغية الوصول إلى هدف، وغاية النص الذي يخضع التأويل^(٢) فهو عملية انتقال من الصورة إلى المعنى، ومن الكلمات إلى الدلالة الباطنية للنص.

والتأويل لا يقع بين الأشياء المتشابهة، وإنما بين الأشياء المتضادة والمتناقضة، فالمعنى الخفي أو المعنى الثاني يتضاد مع المعنى الظاهري ويغيره، والنص هو الذي يجمع بين المتضادات عبر نظام الدلالة الأدبية التي هي دلالة إيهام وتخيل، وهذه العملية مرتبطة بشكل كبير بالمتلقي الذي ستؤول إليه الدوال المختلفة في تركيب النص، وسيستند إليه مهمة اكتشاف عالم المعنى، فالتأويل يعمق الانسجام في المستوى العميق بألية التخيل^(٣).

إذن إذا كان الخيال هو الملكة الخاصة بتشكيل النص، فإن البديع نمط خاص من أنماط هذا التشكيل، يمتاز بالغرابة والجدة والإثارة والدهشة، ويتوصل إلى ذلك بالتأويل حيث تتواشج التراكيب والصور على نحو فريد يعتمد على خلق علاقات

(١) ينظر: القاموس المحيط، ابن سيده: مادة (بدع): ٣/٣.

(٢) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: ١٣٦.

(٣) ينظر: حد اللغة بين المعيار والاستعمال، عبد السلام المسدي: ٧.

التأويل في شرح الكافية البديعية لصفي الدين الحلبي

تتمثل في نسيج من العلامات المتوافقة والمتضادة المختلفة، التي تؤدّي، من ثم، إلى نشوء شبكة من القرائن السياقية التي يتمُّ بها توظيف المعنى المراد.

المحسنات البديعية

هي الوسائل التي يستعين بها الأديب لإظهار مشاعره وعواطفه من أجل التأثير في النفس، ويظهر جمال هذه الوسائل إذا جاءت قليلة وغير متكلّفة داخل النصّ، حيث يظهر المعنى الذي يقصده الأديب، أمّا إذا أفرط الأديب في استعمالها، فإنّها تُظهر ضعف الأسلوب وعجز الأديب. ويُطلق على المحسنات البديعية في بعض الأحوال أيضًا الزينة اللفظية، أو الزخرف البديعيّ، أو اللون البديعيّ، أو التحسين اللفظي^(١).



(١) ينظر: البلاغة والتطبيق، أحمد مطلوب: ٤٦٠.

المبحث الأول

المحسنات المعنوية

هي التي يكون التحسين بها راجعاً إلى المعنى، وإن كان بعضها قد يفيد تحسين اللفظ أيضاً.

والحقيقة التاريخية لا تغفل أهمية المحسنات المعنوية في البلاغة العربية، ولا تنكر أثر فنونها في بناء الأسلوب الفني للأدب العربي؛ ذلك لأن هذه الفنون أصيلة منذ أقدم العصور، وفي شتى المواضيع والأغراض^(١)، ويتفرع من هذا الفن عدّة فروع، منها:

التورية

وتسمى إيهاماً وتخبيلاً أيضاً، وهي أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان، أحدهما قريب غير مقصود، ودلالة اللفظ عليه خفية؛ فيتوهم السامع أنه يريد المعنى القريب، وهو إنما يريد المعنى البعيد بقريظة تشير إليه ولا تظهره، وتستره عن غير المتيقظ الفطن^(٢)، وهنا يكمن معنى التأويل.

فمثلاً يقول صفي الدين الحلي:

(١) البلاغة والتطبيق، أحمد مطلوب: ٤٦٤.

(٢) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي: ٣١٠.

وَسَاقٍ مِنْ بَنِي الْأَتْرَاكِ طِفْلٍ
أَتَيْهُ بِهِ عَلَى جَمْعِ الرِّفَاقِ
أُمْلَكُهُ قِيَادِي وَهُوَ رَقِي
وَأَفْدِيهِ بَعَيْنِي وَهُوَ سَاقِي^(١)

المراد بالمعنى الواحد من التورية ساقى الراح، وهو ظاهر^(٢) صحيح، والمعنى الآخر أن يكون هذا ساق الشيخ صفّي الدين.

خَيْرُ النَّبِيِّينَ وَالْبُرْهَانَ مُتَّضِحٌ
فِي الْحَجَرِ عَقْلًا وَنَقْلًا وَاضِحُ اللَّقْمِ^(٣)

والتورية واضحة في البيت الشعري، إذ أراد الشاعر بلفظ الحجر العقل، ومراد سورة الحجر لقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ومعنى بعدك وحياتك، فنلاحظ الشاعر هنا نقل التورية من وظيفتها البلاغية إلى وظيفة ثقافية شخصية، استطاع بها أن يجرّ النص من قيوده الضيقة، ويدفع به إلى ممارسة وظيفة أوسع.

الطباق

ويقال له المطابقة، وهو أن يجمع بين شيئين متوافقين وبين ضدّيهما، ثم إذا شرطها بشرط، وجب أن تشترط ضدّيهما بضدّ ذلك الشرط^(٤).

ومثاله في الكافية البديعية:

- (١) شرح الكافية البديعية، صفّي الدين الحلبي: ١٣٥.
- (٢) خزانة الأدب وغاية الارب، ابن حجة الحموي: ١٢٧.
- (٣) شرح الكافية البديعية، صفّي الدين الحلبي: ٢٢.
- (٤) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب: ٥٢٢.

قَد طَالَ لَيْلِي وَأَجْفَانِي بِهِ قَصُرَتْ

عَنِ الرَّقَادِ فَلَمَّ أَصْبَحَ وَلَمْ أَنْمِ^(١)

ومثال المطابقة في البيت (طال)، و(قصرت)، فكأنَّ المتكلمَّ قابل الضدَّ بالضدَّ، واستعمل الحركة العموديَّة في التنقل بين ألفاظ الطباق؛ من أجل إبراز التوتر والمفارقة التي أصابته، وهنا تداخل حسيّ نفسيّ في حركيّة الطباق بين فعل تتَّجه دلالته إلى الأعلى، وهو (الطول) والليل، وآخر يتَّجه معناه نحو الأسفل، وهو (الأجفان) والرقاد، والرقاد هنا لا يدلُّ على مجرَّد الاستلقاء والنوم، كذلك لا يدلُّ طول الليل على طول الليل بحدِّ ذاته، وما يحمل من راحة جسديَّة، بل هناك دلالة أخرى أراد الشاعر إيصالها من خلال البيت، وهي حُبُّه وشوقه لمُدوِّحه، فضلاً عن حاجتهم للرسول ﷺ بعد ما أصابهم من نكبات وويلات.

تأكيد الذمُّ بما يشبه المدح

وهو ضربان:

الأول: أن يستثنى من صفة مدح منفيَّة عن الشيء صفة ذمُّ بتقدير دخولها فيها.

والثاني: أن يثبت لشيء صفة ذمُّ ثمَّ يوتى بعدها بأداة استثناء، تليها صفة ذمُّ أخرى^(٢).

ومثالنا على النوع الثاني من شعر صفي الدين الحليّ في بديعته الرائعة، يقول فيها:

(١) شرح الكافية البديعيَّة، صفيّ الدين الحليّ: ٧٢.

(٢) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي: ٣٢٩.

مِن مَعَشَرٍ يُرَخِّصُ الْأَعْرَاضَ جَوْهَرُهُمْ

وَيَحْمِلُونَ الْأَذَى مِنْ كُلِّ مُهْتَضِمٍ^(١)

وهذا النوع من مستخرجات ابن أبي الأصبع، وهو أن يظهر المتكلم بالهجاء إنسان، فيأتي بألفاظ موجّهة، ظاهرها المدح، ويأخذها القدح والهجاء الباطن في بيت المقيدة في موضوعين، أحدهما أن مراده بالأعراض المرخّصة جمع عرض فأوهم بذكر الجوهر، وهو يريد جمع عرض، والآخر المثال المذكور، والمقصود لكون الأوّل تشبيه المداريّة والإيهام أيضاً، وقولهم يحملون الأذى من ظالمهم، يريد وصفهم بالذلّ وقلة المنعة^(٢).

الاستخدام

هو ذكر لفظ مشترك بين معنيين يراد به أحدهما، ثم يُعاد عليه ضمير أو إشارة بمعناه الآخر، أو يُعاد عليها ضميران يراد بثنائهما غير ما يُراد بأولهما^(٣)، والاستخدام في البيت الشعريّ لصفيّ الدين الحلبيّ، يقول فيه:

مِن كُلِّ أْبَلَجٍ واري الزنْدِ يَوْمَ نَدَى

مُشْمَرٍ عَنْهُ يَوْمَ الْحَرْبِ مُصْطَلِمٍ^(٤)

الاستخدام تسديد الالتباس بالتورية، وهو قليل في الشعر؛ لصعوبته، والاستخدام في بيت القصيدة، هو في إشراك لفظة الزند، فاستخدم مفهوم الزناد وبقرينة الورى يوم الندى، ومفهوم العضو الذي تحت العضد بقريضة قوله مشمّر

(١) شرح الكافية البديعية، صفيّ الدين الحلبيّ: ٣٠٥.

(٢) شرح الكافية البديعية، صفيّ الدين الحلبيّ: ٣٠٥.

(٣) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي: ٣١١.

(٤) شرح الكافية البديعية، صفيّ الدين الحلبيّ: ٢٩٦.

عنه يوم الحرب، والضمير الذي في لفظه عنه عائد إلى الزند، وهو من شروط الاستخدام.

الاستطراد

هو أن يخرج المتكلم من الغرض الذي هو فيه إلى غرض آخر لمناسبة بينهما، ثم يرجع، فينتقل إلى إنهاء الكلام الأوّل^(١)، والاستطراد في قصيدة صفي الدين الحليّ:

كَأَنَّ أَنَاءَ لَيْلِي فِي تَطَاوُلِهَا

تَسُوْفُ كَاذِبَ آمَالِي بِقُرْبِهِمْ^(٢)

أورد الشيخ صفيّ الدين هنا، استطراداً غريباً عبّر عنه بتقديم أداة التشبيه في أوّل البيت بقصد التوصل إلى الثاني، وما خرج أحد من الاستطراد بطريق التشبيه إلا جعل أداة التشبيه مع المستطرد به في آخر الكلام، والشيء الآخر الذي ورد في البيت أنّ الشاعر أراد من الاستطراد أن يمهد لموضوعه الرئيس، وهو المديح (مدح الرسول)، من خلال الربط بين الغرض الأوّل الذي تحدّث فيه عن تكبّر ليلي، وبينه هو الذي لا تكبّر له، ولا تطاول أمام الرسول ﷺ، لكنّه أراد أن يلفت نظر المتلقّي ويوهمه حين ذكر تكبّر ليلي، ثمّ استطرد وذكر مقامه أمام الرسول ﷺ، بل مقام البشر بصورة عامّة.

تجاهل العارف

هو سؤال المتكلم عمّا يعمله حقيقة تجاهلاً لنكته، كالتوبيخ أو التعجب أو التقرير^(٣)، والشاهد في البيت الشعريّ لصفيّ الدين الحليّ جاء للتوبيخ، يقول:

(١) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي: ٢١٩.

(٢) شرح الكافية البديعيّة، صفيّ الدين الحليّ: ٧٣.

(٣) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي: ٣٣٥.

يَا لَيْتَ شِعْرِي أَسِحْرًا كَانَ حُبُّكُمْ

أَزَالَ عَقْلِي أَمْ ضَرْبٌ مِنَ اللَّمَمِ^(١)

ولم يرد الشاعر هنا المبالغة في الوصف، وذكر الصفات واستطرادها، بل جاء لفائدة أخرى، هي إظهار معجزة تكمن في الرسول ﷺ يعرفها الشاعر، ولكنه يسأل حتى يذكر بها من سلب أو جهل حق آل محمد ﷺ أو جهل، فالتعجب ليس من حبه للرسول، بل من الذين أنكروا حقه.



(١) شرح الكافية البديعية، صفي الدين الحلبي: ٩٨.

المبحث الثاني

المحسنات اللفظية

وهي من أقدم موضوعات البديع وأحد شطريه، وقد صنّف البلاغيون كتباً ومؤلفات كثيرة عن هذا الفن الرائع، وتتضمّن المحسنات اللفظية مواضيع مختلفة، منها:

الجناس

إنّ الجناس والتجنيس والمجانسة والتجانس كلّها ألفاظ مشتقة من الجنس، فالجناس مصدر جناس، والتجنيس تفعيل من الجنس، ومجانسة مفاعل منه؛ لأنّ إحدى الكلمتين إذا شابهت الأخرى، وقع بينهما مفاعلة، والتجانس مصدر تجانس الشيطان إذا دخلا تحت جنس واحد^(١).

ومن الجناس اللفظي الذي ورد في الكافية للشاعر صفيّ الدين الحلبيّ:

مَنْ لِي بِكُلِّ غَرِيرٍ مِنْ ظِبَائِهِمْ

غَرِيرٍ حُسْنٍ يُدَاوِي الْكَلِمَ بِالْكَلِمِ^(٢)

الجناس في البيت الشعريّ الكلم الأولى بالضمّ والكلم الثانية بالكسر،

(١) جواهر البلاغة، أحمد مطلوب: ٣١٣.

(٢) شرح الكافية البديعية، صفيّ الدين الحلبيّ: ١١٧.

وظّفه الشاعر في هذا البيت خدمةً للمعنى الذي أراد إيصاله للمتلقّي؛ لأنّ اللفظ المشترك إذا حمل على معنى، ثمّ جاء المراد به معنى آخر، كان للنفس تشوّق إليه.

فلاحظ أنّ الشاعر أستعمل (الكلام الطيب) علاجاً للجراح، والكلام الذي قصده الشاعر هو كلام الرسول ﷺ، ولو كان كلام بشر عادي، لما خصّه الشاعر، ووظّف الجناس لخدمته لحشد النصّ بطاقة دلاليّة توحى بطبيعة العلاقة الوجدانيّة بين الطرفين، فدلالة (يداوي الكلم بالكلم) تدلّ على مكانة الطرف الأوّل عند الطرف الثاني، بحيث جعل كلامه علاجاً لجراحه، فضلاً عن أنّ الجناس حقّق جمالاً اكتسب الكلام به جرّساً موسيقياً عبّر عن إحساس الأديب، وأعانه على نقله نقلاً صحيحاً مفهوماً، بعيداً عن الغموض الذي ساد في عصره.

الاقْتِباس

هو تضمين الكلام نثراً أو نظماً شيئاً من القرآن أو الحديث، ولا يعني أن الإنسان الباحث لا يقتبس من غيرهما طالما أن المقتبس شيء صحيح^(١).

ومن الاقتباس الذي ورد عند صفي الدين الحلبيّ، قوله:

هَذِي عَصَايَ الَّتِي فِيهَا مَآرِبُ لِي

وَقَدْ أَهْشُ بِهَا طَوْرًا عَلَى غَنَمِي^(٢)

في هذا البيت نجد الشاعر يستمدُّ معناه من قوله تعالى، حين سأل موسى بن عمران،

(١) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي: ٣٤٣.

(٢) شرح الكافية البديعية، صفي الدين الحلبيّ: ٣٢٦.

أ.د. علي عبّاس الأعرجبي / م.د. فاطمة عبد زيد شوين الخزاعي

فقال: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبٌ أُخْرَىٰ﴾^(١)، وما أَرادَه النبي موسى في الآية المقتبسة المعنى أَنه كان يُسقط أوراق الأشجار بعصاه لترعاه الغنم فتنتفع به، وما أَرادَه صفيّ الدين من معنى، هو تمثيل حاله وتوسُّله؛ لانتفاع نفسه بمديح النبي مُحَمَّد ﷺ بحال الهشِّ بالعصا على الغنم، وذلك على سبيل الاستعارة، إذ استعار العصا للمدح بعد أن ذكر أَن له فيها مآرب، فنقل المعنى من معناه الأصلي إلى معنى آخر.

حسن الابتداء

وهو تأتق المتحدث أو الناظم في أوّل كلامه، راصفاً فيها أعذب الألفاظ وأجزها وأرقها وأسلسها وأحسنها نظماً وسبكاً وأصحها مبنى وأوضحها معنى وأخلاها من الحشو والركّة والتعقيد^(٢)، وهناك مطالع قصائد رائعة للشاعر صفيّ الدين الحلبيّ، منها.

إِنْ جِئْتَ سَلْعًا فَسَلِّ عَنْ جَيْرَةِ الْعَلَمِ

وَاقْرَأِ السَّلَامَ عَلَىٰ عُرْبٍ بِذِي سَلَمٍ^(٣)

مطلع من قصيدة كتبها الشاعر إلى صديق له، وعده في نصرته في بعض حروبه، فأخلف الوعد.

والشاعر هنا شبّه بذكر سل والسؤال عن جيرة العلم والسلام على عرب بذي سلم، ولا يشكل على من عنده أدنى ذوق أن هذه البراعة صدرت لمديح

(١) سورة طه: ١٨.

(٢) ينظر: حسن التوسُّل إلى صناعة الترسُّل، شهاب الدين بن سليمان الحلبيّ: ٣٥.

(٣) شرح الكافية البديعيّة، صفيّ الدين الحلبيّ: ٥٧.

نبوي، فقد حدّد غرضه في مطلع القصيدة؛ من أجل التخصيص والتأكيد على موضوع القصيدة، وهو مدح الرسول ﷺ، ثمّ عزّج تذكُّرك الأحاب القاطنين بذي سلم.

حسن التخلُّص

وهو أن يستطرد الشاعر المتمكّن من معنى إلى معنى آخر يتعلّق بممدوحه، بتخلُّص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا، تعيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأوّل، وقد وقع في الثاني لشدّة المازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتّى كأنّهما أفرغا في قالبٍ واحد^(١).

وقد جاء حسن التخلُّص في شعر صفي الدين الحلبيّ

مِن كُلِّ مُعْرَبَةٍ الْأَلْفَاظِ مُعْجَمَةٍ

يَزِينُهَا مَدْحُ خَيْرِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ^(٢)

لقد برع الشاعر في اختيار حسن التخلُّص المناسب لمطلع القصيدة، فنلاحظه يستطرد من معنى إلى معنى آخر يتعلّق بممدوحه، بتخلُّص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأوّل إلاّ وقد وقع في الثاني؛ لشدّة المازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتّى كأنّهما أفرغا في قالبٍ واحد؛ من أجل التأكيد على ممدوحه الذي وصفه بخير العرب والعجم، بعد أن استطرد بذكر صفاته، وكأنّه جمع كلّ المعاني المتقدّمة بهذا البيت وبهذا الوصف، حتّى يبيّن للمتلقّي من هو ممدوحه إن كان جاهلا.

(١) ينظر: البلاغة والتطبيق، أحمد مطلوب: ٤٦٥.

(٢) شرح الكافية البديعية، صفي الدين الحلبيّ: ١٢٢.

المواربة

وهي أن يجعل المتكلم كلامه بحيث يمكنه أن يغيّر معناه بتحريف أو تصحيف أو غيرهما؛ ليسلم الشاعر من المؤاخذة^(١)، كما قال صفيّ الدين الحلّي في بيته:

لَأَنْتَ عِنْدِي أَحْصُ النَّاسِ مَنْزِلَةً

إِذْ كُنْتُ أَقْدَرُهُمْ عِنْدِي عَلَى السَّلْمِ^(٢)

والمثال على المواربة في هذا البيت الشعريّ تكمن في موضعين، الأوّل في صدر البيت، وهو أخص يريد أخص الناس بالبيت المهملة، قارب عنها بإبدالها بالصاد، والثاني في عجزه، وهو أقدرهم بالذال المعجمة قارب عنها بالتصحيف بالذال المهملة، فافهم ذلك، فالمقصود أنّ الشاعر خصّ هذا الممدوح دون غيره؛ لمنزلته وما يحمله من صفات ليس إلّا.

الاكتفاء

وهو أن يحذف الشاعر من البيت شيئاً يستغني عن ذكره بدلالة العقل عليه^(٣)، والمثال على الاكتفاء قول صفيّ الدين الحلّيّ:

قَالُوا أَلَمْ تَدْرِ أَنَّ الْحُبَّ غَايَتُهُ

سَلْبُ الْخَوَاطِرِ وَالْأَلْبَابِ قُلْتُ لَمْ^(٤)

(١) البلاغة والتطبيق، أحمد مطلوب: ٨٨.

(٢) شرح الكافية البديعية، صفيّ الدين الحلّيّ: ١٣٤

(٣) ينظر: جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي: ٣٥٦

(٤) شرح الكافية البديعية، صفيّ الدين الحلّيّ: ٥٦

والاكتفاء واضح في هذا البيت الشعري، جاء بالارتباط العطفِيّ، فالواضح أنّ الشاعر استعمل الاكتفاء ليس للإيجاز فقط، بل أراد أن يقول إنّ أصحاب الألباب لم يسلب منهم الخواطر؛ لأنّ هذا الحبّ ليس كالحبّ الذي يسلب لبّ الإنسان وخواطره، بل هو حبٌّ يزيد أصحاب العقول حكمةً ومعرفةً؛ لاقتدائهم بسيد الكائنات.

التذييل

هو أن يؤتى بعد إتمام الكلام بجملة تشتمل على معناه، تجري مجرى المثل:

لِللّهِ لَذَّةٌ عَيْشٍ بِالْحَبِيبِ مَضَّتْ

فَلَمْ تَدُمْ لِي وَغَيْرِ اللَّهِ لَمْ يَدُمْ^(١)

فقد جاء التذييل هنا من أجل التوكيد واستيعاب لمعنى عجز البيت، فجملة (وغير الله لم يدم) هي التي جاءت بعد تمام الكلام وحسن السكوت، واشتملت على معناه وزادته بذكر (دوام الله)؛ تحقيقاً وتوكيداً على إيمان الشاعر بأنّه لا يدوم إلا الله ﷻ، رغم حبه وتعلقه بالرسول.

التشريع

هو بناء البيت على قافيتين يصحّ عند الوقوف على كلّ منهما^(٢)، كقول الشاعر صفيّ الدين الحلبي:

(١) شرح الكافية البديعية، صفيّ الدين الحلبي: ٧٧.

(٢) خزنة الأدب وغاية الإرب، ابن حجة الحموي: ٧٨.

فَلَوْ رَأَيْتَ مُصَابِي عِنْدَمَا رَحَلُوا

رَأَيْتَ لِي مِنْ عَذَابِي يَوْمَ بَيْنِهِمْ^(١)

فأليت إذا أسقطت من كل شطرٍ منه جزءاً، صار البيت:

فَلَوْ رَأَيْتَ مُصَابِي

رَأَيْتَ لِي مِنْ عَذَابِي

ولا فرق في الدلالة بين البيتين، فكلا الحالتين تدلُّ على عذاب الشاعر ومصابه،

فأنتى تعلقت هذا إذا كان مع ممدوحه يتعدّب، وإن رحل عنه يتعدّب.

الموازنة

وهي تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية، أي أن ينظم الشاعر البيت، ويقفي جميع عروضه على قافية واحدة، وروي واحد مخالف لروي البيت من غير حشو لفظية أجنبية تفرّق بين أحد أجزائه^(٢)، كقول صفيّ الدين الحلبيّ:

مُسْتَقْتَلٍ قَاتِلٍ مُسْتَرْسِلٍ عَجَلٍ

مُسْتَأْصِلٍ صَائِلٍ مُسْتَفْجَلٍ خِصِمٍ^(٣)

لقد أحدث هذا البيت وقعاً موسيقياً رائعاً من خلال الموازنة بين كلماته، فضلاً عن معاني كان يقصدها المؤلّف، لذكر وتخصيص الممدوح بهذا الصفات دون غيره، فلو كانت الكلمات قاصرة المعاني وغير مؤثرة، فالنغم الموسيقي هو الذي يتكلّف التأثير في

(١) شرح الكافية البديعية، صفيّ الدين الحلبيّ: ١١٣.

(٢) خزانة الأدب وغاية الإرب، ابن حجة الحمويّ: ١٢٣.

(٣) شرح الكافية البديعية، صفيّ الدين الحلبيّ: ١٣٢.

المتلقّي، إذن دلالة البيت هنا هو المزج بين المعنى واللفظ والموسيقى من أجل إيصال صورة للمتلقّي.

التوشيح

هو الإحصاء والتسهيم عند معظم البلاغيين، ويسمّى (التشريع)، وقد يسمّى (ذا القافيتين)، غير أن ابن منقذ قال عنه: هو أن تريد الشيء فتعبر عنه عبارة حسنة، وإن كانت أطول^(١).

هُم أَرْضَعُونِي تُدِيّ الْوَصِلِ حَافِلَةً

فَكَيْفَ يَحْسُنُ مِنْهَا حَالٌ مُنْفَطِمٌ^(٢)

فقصيدة صفي الدين قد عُلِمَ أنّها ميميّة، وقد مرّ على السامع منها عدّة أبيات، وقد صدر بيت التوشيح بذكر الرّضاع والثدي، فما يخفى أن تكون القافية منفطماً، إلّا على كلّ أجنبيّ من هذا العلم.

لكن ما أراده الشاعر من التوشيح في هذه القصيدة المدحيّة ليس معرفة القافية ورصدها فقط، بل أراد أن يقول إنّ حبّه وتعلّقه (بالرسول وآل بيته) صعب أن ينقطع عنه، كالطفل الرضيع، بل هي أشدّ؛ لأنّ الرضاع هنا لم تكن كالرضاعة الطبيعيّة المعرفة، بل هي رضاعة تواصل بينه وبين ممدوحه، ولقد برز في حسن هذا التركيب استجلاب الرقّة على من تقدّمه في مدح سيّد الكائنات.

(١) معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، أحمد مطلوب: ٤٣٨.

(٢) شرح الكافية البديعيّة، صفي الدين الحلبيّ ٧٤

نتائج البحث

وفي نهاية المطاف توصلنا إلى نتائج يمكن تلخيصها بما يأتي:

١. هناك علاقة قائمة بين علم البديع والتأويل، على اعتبار أن الكلمة لا تكتسب معناها من ذاتها، بل من موقعها داخل الخطاب وعلاقتها بالعناصر المجاورة لها، وهذا الأمر يؤسس على السياق الذي يكشف من عملية التفاعل الحاصلة بين الكلمات، والتأويل يتعامل مع السياق، ويبحث عن الانسجام الذي يعني البحث عن العلاقات الخفية التي تولّف النصّ وتنظّمه.

٢. رصد البحث أهمّ الظواهر البديعية للمعنى، ومنها التورية والاقْتباس... وقد تبين أن ألوان البديع المعنويّ قد تلوّنت بها أبيات الشاعر، وقد أفرط إفراطاً كبيراً فيها، من أجل أن يعبرَ عمّا يجول في خاطره من دون أن يأخذ عليه مأخذ، وهذا ما جعلنا نُؤول بعض الأقوال؛ من أجل أن نصل إلى ما يقصده الشاعر.

٣. شخّص الشاعر المحسنات اللفظية، وتوسّع فيها، حتّى بلغت اثنتي عشرة صورة لفظية، وهذا يدلُّ على اهتمام الشاعر بالزاي البديعية التي سادت في عصره، فضلاً عن إعطائه مساحة واسعة في أشعاره يستطيع بها ذكر أشياء لا يمكن ذكرها في الحقيقة بشكل مباشر، وهذا أيضاً ساعد البحث في التوسّع أكثر بتأويل المحسنات اللفظية.

المصادر والمراجع

* خير ما نبتدىء به، القرآن الكريم.

١. الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الأمدي (ت ٦٣١هـ)، تحقيق: عبد الرزاق عقيق، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، (د.ط)، ٢٠١٠.
٢. الإحكام في أصول الأحكام، أبو محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.
٣. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١.
٤. أسس النقد الأدبي عند العرب، أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٩٦.
٥. أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم المدني، تحقيق: شاكر هادي شاكر، النجف، (د.ط)، ١٩٦٨.
٦. البلاغة والتطبيق، أحمد مطلوب، ط٢، ١٤١٠هـ.
٧. تهذيب اللغة، الأزهرى، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار الإحياء العربي،

بيروت، ط ١، ٢٠٠١.

٨. جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، إشراف: صدقي محمد جميل، ط ٢، ١٣٨٢هـ.

٩. حسن التوسّل إلى صناعة الترشّل، شهاب الدين أبي الثناء محمود ابن سليمان الحلبيّ الحنفيّ، مطبعة الوهيب بمصر، القاهرة، ط ١، ١٣٩٨هـ.

١٠. خزانة الأدب وغاية الإرب: ابن حجّة الحمويّ، القاهرة، (د.ط)، ١٣٠٤هـ.

١١. ديوان صفيّ الدين الحليّ، دار صادر، مطبعة حبيب أفندي.

١٢. الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربيّة، أبو نصر أسماعيل بن حمّاد الجوهريّ (ت ٣٩٣هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٨٧.

١٣. فصل المقال، ابن رشد الحفيد، تحقيق: محمّد عمارة، دار المعارف، ط ٢، (د.ت).

١٤. القاموس المحيط، الفيروز آباديّ، تحقيق: مكتبة التراث في مؤسّسة الرسالة، بيروت، لبنان، (د.ط)، ٢٠٠٥.

١٥. لسان العرب، محمّد بن مكرم بن منظور الافريقيّ المصريّ جمال الدين أبو الفضل، دار صادر، بيروت، (د.ط)، ٢٠١٠.

١٦. مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو عليّ الفضل بن حسين الطبرسيّ، مطبعة العرفان، صيدا، (د.ط)، ١٣٣٣هـ.

التأويل في شرح الكافية البديعية
لصفي الدين الحلبي

١٧. المستصفي، أبو حامد الطوسي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار
الكتب العلمية، (د.ط)، ٢٠٠٥.

١٨. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مكتبة ناشرون، ط ١،
٢٠٠٦.

